المتوسط الليبي: علاقة الليبيين بعوالم البحر المتوسط عبر العصور

الزاوية الغربية – ليبيا 25 نوفمبر 2020م

الورقة الخلفية للمؤتمر

في أكتوبر 1819م رست قبالة السواحل الليبية القوات البحرية الأوروبية الموحدة بقيادة إنجليزية فرنسية لإبلاغ السلطات الليبية بمقررات مؤتمر (أكس لاشابيل **Aix Le Chapelle**). وهي المقررات القاضية بحظر حركة الجهاد البحري المغاربية(القرصنة البحرية) ومنع أسر المسيحين في عرض المتوسط، ومباشرة القوى الأوروبية بقيادة إنجليزية لأمن البحر الأبيض المتوسط، الحادثة الظرفية التي تكمن رمزيتها التاريخية في نهاية علاقة الليبيين بالبحر المتوسط كفاعلين في أحداثه، وأمنه، وسياساته، على الرغم من تربعهم على شاطئ ممتد في منتصف المسافة بين الحوض الغربي والشرقي للمتوسط، لذلك يُعدّ انعقاد مؤتمر أكس لاشابيل ومقرراته المتوسطية لحظة تاريخية فاصلة في علاقة الليبيين بمتوسطهم، والمجالات المتوسطية عبر العصور، وتحول زمام المبادرة المتوسطية إلى الضفة الشمالية لهذا البحر التاريخي.

إن علاقة الليبيين بالبحر المتوسط وعوالمه، وثقافاته وأديانه، وثرواته الزائلة والمتجددة، يُعد إشكالية بحثية على مختلف الصعد، فالواقع المعاصر والآتي يحيل المتمعن إلى أن هناك نفوراً متبادلاً بين الليبيين ومتوسطهم، حالة غير طبيعية مع هذا الجار المجاور، الذي تهادت وتتهادى أمواجه في حنين تاريخي، وفي موجات متتالية تلامس الشواطئ الليبية وصخورها العتيدة في حوار دائم، ولعلها محاولات الأمواج المتوسطية لمحو الآثار السلبية التي تركتها أقدام الغزاة الذين ركبوا أمواج المتوسط كمطية للوصول إلى موئل الأغنام والقمح، كما تشير أسطورة التأسيس الإغريقية، أو أولئك القادمين من مونتا زوما في الطرف الأبعد للمعمورة، لعلهم يدركون في الشواطئ الليبية أمجاداً عسكرية أو اقتصادية، أو من الذين ألمّت بهم لفحات إنسانية مفاجئة، وجعلوا من مراقبة المتوسط الليبي مهمة إنسانية مقدسة، أو من الذين اعتقدوا بأن الوطن الليبي ومتوسطه الحاني يمكن أن يكون مكملاً لشواطئهم المناظرة، واستدعوا ما في جعبتهم من الملاحم الرومانية الزائلة، لعلها تمنحهم شيئاً من المشروعية لإلتهام المتوسط الليبي، الذي كان دائماً متهيئاً للشدائد ولأشكال مختلفة من المقاومات للذود عن ظهيرهم ونظيرهم المتوسطي، وكان لهذه الموجات المتتالية من الغزاة آثارها في بلورة شكل من أشكال التوجس الليبي للقادمين عبر متوسطهم في مختلف العصور.

تفترض الإشكالية الرئيسة التي يطرحها المؤتمر الدولي الأول للدراسات التاريخية بجامعة الزاوية : أن هناك جفاء ممتداً وعلاقة غير مستقرة بين الليبيين ومتوسطهم الداني، والتي قد تؤدي إلى نشوء حالة من النفور والعداء أحياناً بينهم وبين جوارهم المتوسطي التي نشأت على خلفية تجربتهم التاريخية القاسية مع ممتطئي هذا المجال، على الرغم مما يشكله المتوسط بعوالمه وثقافاته من بُعد وركيزة أساسية في الشخصية الاجتماعية والسياسية للدولة والمجتمع الليبي التاريخي والراهن، وهذه الإشكالية تعكس بدورها مسألة جوهرية في العلاقة الثنائية بين طرفين هما: الليبيين والوطن الليبي الجغرافي والسياسي والاجتماعي مع البحر المتوسط ومجالاته الرحبة، علاقة تاريخية تبادلية مؤثرة بسلبياتها وإيجابياتها عبر العصور، وأن حضور المتوسط

وممتطئي لجات أمواجه أساسي في الأحداث والوقائع الليبية، في المقابل فإن الحضور الليبي في المتوسط كان في بعض الحقب والمراحل التاريخية حضوراً فاعلاً ومتقطعاً، بحيث عرفت هذه العلاقة التبادلية صعوداً أو هبوطاً من الجانب الليبي بحسب معطيات كل حقبة أو مرحلة زمنية من الزمن الليبي المتوسطي الطويل، وعلى الرغم من محاولات التجاهل وإسقاط المتوسط من الذاكرة الجمعية الليبية، فإن أمواج المتوسط لا تزال في تناجٍ مستمر للشواطئ الليبية، التي بدورها تحتضن العمائر والشواهد والمؤثرات الحضارية المتوسطية الفريدة في نوعها أحياناً كشاهد على تلك العلاقة التبادلية بين الليبيين ومتوسطهم.

وتجر هذه الإشكالية الباحثين والمهتمين بالقضايا المتوسطية في بُعدها الليبي إلى تساؤلات وجزئيات مجهرية، ومباحث لا تزال بعيدة عن التناول المنهجي الموثق في صياغة وطنية بعيدة عن التأثيرات التصورية أو الأيديولوجية المنفرة من المتوسط وعوالمه، فالليبيون بتنوع مشاربهم العرقية وتكويناتهم الاجتماعية وجغرافيتهم التي يتكئ عليها المتوسط في قواعده الجنوبية، تبلورت لديهم رؤية وتصورات وهواجس عن المتوسط وممتطئيه عبر العصور، وتخلد قلاعهم ومحارسهم وتحصيناتهم الدفاعية البحرية لتلك الخيفة والخشية المتوارثة، مما تحمله أمواج المتوسط، ونحا مؤسسو حواضرهم التاريخية الابتعاد قدر الإمكان عن مجاورة المتوسط، وتخلد بعض مزارات أوليائهم الشاطئية، ورياض صلحاؤهم لأحداث بحرية صدامية دامية، وتؤرخ بشكل عفوي في الذاكرة الجماعية الليبية لتلك العلاقة العنيفة مع القادمين عبر أموج المتوسط الليبي، وتشكلت عند البعض رؤية أحادية غير موثقة تفسر ذلك النفور الليبي من متوسطهم يرجع إلى الأبعاد الاجتماعية التكوينية للمجتمع الليبي، من خلال عدّ الليبيين قاريين يميلون إلى حياة البداوة والانكفاء على مجالهم الأرضي الداخلي، بعيداً عن متوسطهم ومفاجأته ومؤثراته، ولكن المتمعن في سيرورة الحدث الليبي المتوسطي يلامس تجذر علاقة الليبيين بمتوسطهم، ولم يكونوا طارئين عن البحر المتوسط وعوالمه، بل تبلورت لديهم تجربتهم البحرية الوطنية في إدارة متوسطهم حرباً وسلماً، وتشكلت في ثقافتهم تقاليد بحرية تتميز بالأصالة والخصوصية الليبية،

وانفتحوا على هذا المجال ثقافياً، وتبادلوا المؤثرات الحضارية، ولكن هذا الانفتاح والاندماج الليبي في عوالم البحر المتوسط عرف مراحل من الجفاء والانكفاء بعيدا عن مؤثراته وقضاياه إلى محيطهم القاري، وغيرها من التصورات التي تشكلت على خلفية اهمال البحر المتوسط ومجالاته في سياق البحوث والدراسات الليبية المعاصرة.

لعل الحوادث والوقائع البحرية الليبية الحاسمة بلورت في كل حقبة زمنية شكل العلاقة ورؤية الليبيين لمتوسطهم، من الحقبة الإغريقية والقرطاجية، إلى العهود الرومانية والبيزنطية، مروراً بالحقبة الإسلامية الوسيطية، والعثمانية الحديثة، وصولاً إلى التاريخ الليبي المعاصر والراهن، تنوعت خلالها أشكال الحضور الليبي الإيجابي الفاعل، أو المنكفئ عن الحدث المتوسطي بالقدر الذي جعل البحارة الليبيين وبحريتهم من المتحكمين البارزين في مفاصل ومصائر أحداث المتوسط التاريخية، وإلى الحد الذي جعل البعض يعتقد أن تشكل الشخصية السياسة للدولة الوطنية الليبية وعلاقاتها الدولية تبلورت فوق شريحة القطع البحرية الليبية، وعلى أسنة سيوف رياسها، حتـــــى لحظة إعلان مقررات مؤتمر أكس لا شابيل الألماني سنة 1818م وتطبيقاته القسرية تحت فوهات مدافع الأساطيل الأوربية المتحالفة.

كانت تلك اللحظة فارقة وأخيرة في علاقة التفاعل الليبي مع متوسطهم، وما ترتب عن هذا المؤتمر من تدمير للبحرية الليبية، ومن بعد تبدد علاقة الليبيين بالمتوسط الأزرق، والاندثار التدريجي لفكرة البحر وتأثيرات أمواجه في الذاكرة الليبية، حتى أضحت حالة ضبابية مزمنة مع مولد الدولة الوطنية المستقلة في منتصف القرن العشرين، وطوال سبعين سنة من الاستقلال، وتعدد السلط التي أدارت الشواطئ الليبية، واختلافاتها الأيديولوجية وتعدد رؤاها في كل شيء... إلا أنها تتوافق جميعها في غياب الرؤية الواقعية للمتوسط وقضاياه، وعلاقاتها النافرة بعيداً من هذا المجال، وأسهمت العديد من الأدبيات والفنون الليبية في تشكل تلك الهواجس الأسطورية المخيفة من المتوسط وأهواله والتصورات الذهنية السلبية تجاه المتوسط الليبي.

لذلك فإن هذا المؤتمر العلمي الذي نظمه قسم التاريخ برعاية واشراف مركز البحوث والاستشارات العلمية بجامعة الزاوية تحت مسمى: (المتوسط الليبي) حاولنا من خلاله طرح قضايا وإشكاليات علاقة الليبيين بالبحر المتوسط في سياق تأطير المعرفة الوطنية حول هذا المجال، ومراكمة البحوث والدراسات العلمية الموثقة عن المتوسط، وتلمّس الآفاق المستقبلية للعلاقات الليبية المتوسطية.

الخطوات الاجرائية لانعقاد المؤتمر:

طرح المنظمون مشروع المؤتمر في شهر مايو 2020م، في وقت كانت فيه الجائحة الوبائية لفايروس (كوفيد19) في قمة موجتها الاولى، وكان ذلك التحدي الاول، امام الجهة الراعية والمشرفة ولجانها العلمية، ونرجسية النجاح كانت الغالبة والدافعة الى الاستمرار في مشروع المؤتمر، واخذت اللجان المعنية تتلقي الملخصات والمقترحات البحثية من الباحثين والرد عليها في اوقات قياسية، وبداة تتبلور ملامح تحديات جديدة، تتعلق بالموضوعات المقترحة والمنهجية العلمية المتبعة في صياغة الملخصات ومقترحات البحوث التي زادت عن الاربعين ملخصا، الامر الذي تطلب عقد اجتماعات متتالية ومكثفة وحوارات جد علمية وساخنة تتناسب مع اجواء شهري يوليو واغسطس 2020م، وتطلب الامر اشراك كل الخبرات البحثية في مركز البحوث والاستشارات العلمية من اجل الاستئناس والاسترشاد بخبراتهم في ايجاد مخرج يليق بالمكانة العلمية للمركز والجامعة في كيفية التعاطي مع كم المقترحات التي تلقتها اللجنة التحضيرية للمؤتمر، ومن بعد البحوث والورقات العلمية في صيغتها النهائية، وكانت مرجعية هذا التحدي إما قبول كل المقترحات والبحوث من اجل الاستظهار اعلامياً بذلك الكم من المساهمات في فاعليات المؤتمر، وإما سن قواعد علمية ومنهجية صارمة ورصينة، وعدم التفكير في عدد المشاركات، وكان لمدير عام المركز دور محوري في الاقتناع بهذه القاعدة العلمية، التي تمنح للمنظمين الخصوصية العلمية، ولا تساير تجارب عديد المؤسسات المناظرة في قبول كل ما يقدم.

وبعد ذلك كان التوفيق حليف المنظمين حيث أجازت اللجنة العلمية في مرحلة اولية اكثر من ثلاثين ملخصا ومقترحا تنطبق عليها المعايير العلمية، وفي النصف الثاني من شهر سبتمبر 2020م، اخذت البحوث العلمية في صورتها النهائية ترد للمؤتمر، وتحال الى محكمين مختارين بعناية وبحسب مقررات اللجنة العلمية، بعضها يحال الى التحكيم العلمي السري الثنائي والثلاثي، للوصول الى نتائج مطمئنة من الناحية العلمية، وان تطلب الامر تقديم عدد من الاعتذارات الى عدد من الباحثين، وانتهى العدد المجاز للمشاركة في فاعليات المؤتمر ب(18) بحثاً علمياً، طلب من بعض المشاركين إجراء تعديلات طفيفة وجوهرية لضمان نشرها في المجلة العلمية المحكمة التي يصدرها المركز، وعلى قاعدة: " **البحوث المشاركة في فاعليات المؤتمر لا تلزم المنظمين بضرورة نشرها قبل اجراء التعديلات التي اوصى بها المحكمين**"، وهذا ما افقدنا المزيد من المشاركين بكل أسف، ووضعنا مجددا امام التفكير في اشكالية أكبر حول البحث العلمي في الجامعات العربية وانتاج المعرفة، وهي الاشكالية التي تحيل الى تساؤلات اكثر عمقا وتفصيلا حول كيفية الاعداد العلمي للباحثين الجامعيين من الناحية المنهجية، وهذا ما فرضه التعامل مع الورقات العلمية ومظاهر القصور في التحليل والعرض.

وفي الختام فان اللجنة التحضيرية للمؤتمر وهي تقدم نتائج اعمال المؤتمر في صورة ابحاث علمية محكمة تأمل ان تكون قد انجزت مهمتها على اكمل وجه، وان مظاهر القصور التي جدت اثناء فاعليات المؤتمر سوف تكون دروسا نستفيد منها في فاعليات علمية قادمة.

والله ولي التوفيق والسداد

اللجنة العلمية والتحضيرية للمؤتمر الافتراضي الدولي الاول:

المتوسط الليبي:

علاقة الليبيين بعوالم البحر المتوسط عبر العصور

ديسمبر 2020م